الفصل الخامس:

السبيعي.. صيرفياً

obeikandl.com

الفصل الخامس: السبيعي.. صيرفياً!

بعد أن منَّ الله على السبيعي في مجال التجارة، وعقب أن تراكمت خبرته المستمدة من عمه ناصر والكثير من تجار مكة قرَّر الاستثمار في مجال الصرافة، وكان ذلك عام ١٣٥٧هـ، حيث أسس السبيعي مع أخيه عبدالله «شركة محمد وعبدالله إبراهيم السبيعي للصرافة والتجارة» وتولى محمد رئاسة مجلس إدارة الشركة وأخوه عبدالله نائباً للرئيس، حيث أدرك بذكائه وبعد نظره أن تجارة العملات ستزدهر في تلك الفترة بعد أن استتب الأمن في الحجاز ورفرفت عليه راية الأمان، وانضوى تحت راية الدولة السعودية، وقلَّت أطماع الأشراف والعثمانيين فيه، وقد فطن إلى عالم لا يفطن له إلا القليل من رجال الأعمال حينها، وخصوصاً أن مكة -زادها الله تشريفاً- تشهد وفود آلاف الحجاج والمعتمرين طوال العام من جنسيات مختلفة.

ومع انتعاش وقوة التجارة في مكة كان الصيارفة - ومنهم السبيعي- يشترون العملات من الحجاج ويبيعونها على الصرافين في مكة، وكانت ذروة عمل الصرافة في ذلك الزمن تمتد لأكثر من ستة أشهر قبل الحج.

يقول - حفظه الله -:

«كنا لا نعرف الدولار الأمريكي في ذلك الوقت، وكنا نشتري العملات في مقابل الذهب، وكانت تصلنا مبالغ طائلة من العملة الهندية فئة الألف روبية والدينار العراقي والعملات الإيرانية والتركية في أجواء من الأمن والطمأنينة، وبعد دخول السيارات إلى المملكة العربية السعودية استخدمناها لخدمة أعمالنا».

يقول السبيعي:

من طرائف وغرائب الأمور في ذلك الوقت أن السيارة كانت تتعطَّل في الطريق وهي محملة ذهباً أو فضة ويتركها السائق برفقة المساعد ويذهب إلى الرياض أو جدة للبحث عن قطعة غيار لإصلاحها ويعود ليجدها كما كانت!!

وبعد تطور وسائل الاتصال استخدم السبيعي وبقية التجار البرقيات في تسيير وتسريع التعامل التجاري والمصرفي، فكانوا يستخدمون بعض الكلمات الرمزية للدلالة على العملات، إذ كانوا يسمون الذهب «صبر» والفضة «رشاد» كي لا يعلم أحد من المنافسين أسعار الصرف والتحويل لديهم!!

ومع ظهور بشائر الذهب الأسود - النفط - في الأرض المباركة وتدفقه بكثرة عمّ الخير وانتشر الرخاء واستُخدِمَت الطائرات، وكانت الطائرة المعروفة في ذلك الوقت هي طائرة الداكوتا، وقد ساعدت على انتعاش التجارة، إضافة إلى ازدياد التبادل التجاري عقب الحرب العالمية الثانية؛ لذا نشطت حركة تحويل المبالغ

صورة توضح الصعوبات التي كانت تواجه المسافرين بالسيارات في حالة تعطلها أثناء تنقلها بين المدن قبل ٧٠ عاماً.

النقدية وشراء الذهب والمعادن الثمينة ودخل الدولار السوق العلنية مما زاده حرية.

ومن المواقف التي يرويها السبيعي أنه عند القيام بنقل العملات، والذهب بالطائرة ليلاً كانوا يأخذون صرر الذهب والنقود يدفنونها في الرمل حول المطار وينامون عليها لإرسالها في الصباح الباكر مع أحد الركاب!!

كان محمد السبيعي وأخوه عبدالله هما الوحيدان من أهل نجد اللذان يعملان في مهنة الصرافة في مكة في ذلك الوقت، بينما كان البقية من أهل الحجاز ومنهم: الكعكي، أحمد صيرفي، ابن محفوظ، حمزة صيرفي، وهاشم صلاح غمري، وابن حسن.

وفي الرياض كان من رواد العمل المصرفي صالح الراجحي، وعبدالعزيز المقيرن، الحقباني، الشقري، وفي الكويت الشايع، الزامل، العبدلي، وفي الأحساء: المطلق، ولم يكن في المملكة في ذلك الوقت سوى البنك الهولندي في جدة، وكان عبارة عن شركة مستقلة تقوم بأعمال البنك.

كسب السبيعي ثقة شركائه بأمانته وجهده وكرمه . . ويظهر في الصورة محتفياً بأحد الوفود التجارية التي زارت المملكة .

حرص السبيعي بعد تأسيس مؤسسة الصرافة على القيام برحلات عربية ودولية للتعرف على آليات الصرافة ومعه في هذه الصورة من اليمين إبراهيم العبدالله السبيعي وعبدالعزيز العبدالله السبيعي وإبراهيم محمد السبيعي في إحدى زياراته لتركيا

وبالصدق والأمانة اكتسب السبيعي ثقة العملاء، حيث إن الحوالات المالية كانت تعتمد على الثقة، فالعمل المصرفي في تلك الأيام في العالم عموماً وفي المملكة خصوصاً خلال حقبة الستينيات الهجرية من القرن المنصرم كان قائماً على مبدأ الثقة بين العملاء ومكتب الصرافة والتحويلات، حيث كان التوثيق بالوسائل القديمة من خلال الأختام والمستندات، ولم يكن بالدقة الحالية والرقابة الصارمة التي تعتمدها حالياً مؤسسة النقد العربي السعودي والجهات المالية الأمنية في الدول لحفظ حقوق المودعين وأصحاب الاستثمار والتحويلات المالية، بالإضافة إلى حقوق الشركاء والمساهمين، فكان عمله غاية في الضبط والدقة والأمانة كما أمر الله سبحانه وتعالى بذلك.

ويبدو أن ازدهار الوضع الاقتصادي -إذ ذاك- لمحمد السبيعي قد أغراه بتحقيق أحد أحلامه بامتلاك سيارة خاصة ، ففي عام ١٣٥٩هـ اشترى أول سيارة من نوع «فورد» مستعملة من سعد السميري بـ ٣٥٠٠ ريال، وهو مبلغ كبير جداً

في حينه، وقد تعلَّم قيادة السيارة بمساعدة أحد سكان مكة وهو ابن حميدان.

نظـراً لمحوريـة هـذه المرحلة في حـياة محمد السـبيعي فإنه يتـذكر تفاصيلها وكأنـها وقـعت بالأمس، إذ يقول ـ رعاه الله ـ:

«لم يكن يخطر ببـالي يـوماً أن أترك مكة بيت الله الشريف، ولـكن كـنا نتنقل بشكل يومي بين مكة وجدة وأحياناً مرتين في اليوم حسب متطلبات العمل لمدة عشر سنوات، وكانت المواصلات صعبة نظراً لوعورة الطريق...

ويستطرد: «ولا أنسى معروف الأخ عبدالعزيز المزيني وهو من تجار الكويت، وكنا نحن وكلاءه في المملكة حين نصحني أن أفتح دكاناً في جدة وأستريح مع أخي من عناء الطريق».

ولاء السبيعي لولاة الأمر سمة ثابتة في شخصيته ويظهر هنا مشاركاً في تشييع جثمان جلالة الملك خالد بن عبدالعزيز – رحمه الله – عام ١٤٠٢هـ.

الشيخ محمد السبيعي مع أخيه عبدالله مستضيفاً أحد رجال الأعمال اليابانيين في أثناء زيارته للمملكة.

انتقل السبيعي على أثرها مع أخيه عبدالله والعائلة إلى جدة واستأجر محلاً في عمارة البلدية في شارع قابل، حيث توسعت أعمالهما وافتتحا فروعاً في كل من الرياض والمدينة المنورة والخبر. يقول: «حتى التفكير في الانتقال إلى الرياض لم يكن بالأمر السهل عليّ، حيث إن فراق والدتي وأخي عبدالله كان صعباً، على نفسي وكنت أرى العالم من خلالهما، ولكن ابن آدم مسيَّر ولا يدري أين الخير الذي كتب له».

ثم يضيف مقتطفاً جزءاً من ذكريات تلك الفترة: «نظراً لنقل الوزارات إلى الرياض فكرت في التوسع وفتحت محلاً بالرياض، حيث كان لي أعمال مع بعض الأمراء والوزراء، وعندما ذهبت إلى الرياض قابلت الأخ عمر بن حمران - رحمه الله - في أحد جوامع الرياض وكنت أعرفه من قبل، حيث كان يعمل لدى الكعكي في مكة ثم انتقل إلى الرياض وصار وكيلاً للكعكي، وعرض علي أن نأخذ دكاناً في شارع الملك فيصل في الرياض ونكون شركاء فيه، وتم ذلك بحمد الله، وكان مشهوراً بالصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان ذلك بحمد الله فاتحة خير لعملنا في الرياض». ويضيف: «بعد ذلك توسعت أعمالنا المصرفية وأصبحنا عملاء وممثلين رئيسين لكثير من الشركات والمصارف العالمية».

أما بالنسبة لأخيه عبدالله فقد بقي في جدة لمتابعة أعمالهما التي سارت

-بفضل الله- على أحسن حال وتطورت إلى الأفضل.

وشركة محمد وعبدالله إبراهيم السبيعي ما زالت قائمة ولها نشاطات استثمارية وعقارية وتجارية وصناعية وسياحية، وهي بفضل الله مثال للأمانة والصدق وتتطور بشكل مستمر.

في مجلس الملك خالد:

ويحلو للسبيعي عندما يدور الحديث حول الصرافة في المملكة أن يروي موقفاً جمعه بالملك خالد بن عبدالعزيز - رحمه الله - عام ١٣٩٨هـ، إذ كان - رعاه الله - حاضراً في مجلس الملك خالد الذي اقترح عليه النظر في تحويل مؤسسة الصيرفة إلى بنك مستقل متكامل وخصوصاً أن اقتصاد المملكة كان حينها في أوج ازدهاره، ولكن كان الخير فيما اختاره الله.

انطلاقة بنك البلاد:

وفي عام ١٤٢٥هـ ومع تطور العمل المصرفي في المملكة عموماً فقد أصبح الوضع الاقتصادي يشجع على الاندماجات والتكتلات القوية القادرة على مواجهة مثيلاتها محلياً ودولياً ، فكانت بداية بنك البلاد الذي يعد أحد أكبر البنوك الإسلامية في المملكة العربية السعودية في مجال العمل المصرفي، والبنك يسعى أن يكون بنكاً وطنياً في ظل الالتزام بالضوابط الشرعية كسمة أساسية مع الالتزام بالمسؤولية الوطنية لخدمة المجتمع.

ومن المواقف التي تدل على قوة عزيمة السبيعي أنه - على الرغم من تقدمه في السن وظروفه الصحية - أصرّ على حضور أول اجتماع لمجلس إدارة بنك البلاد، وعندما بدأ الاجتماع طلب السماح له بإلقاء كلمة وتلا آيات من القرآن الكريم، ثم قال: «إخواني وأبنائي: أنتم أمام مسؤولية عظيمة أعانكم الله على حملها، ثم أضاف: ثمانية ملايين مكتتب سوف يدعون لكم أو يدعون عليكم، فاتقوا الله في هذه

الأمانة وكونوا أهلاً لها، وأعرف أن الحمل ثقيل، ولكن الرجال لا ينوء بهم ثقل الأحمال»، ثم استأذن بالانصراف.

رؤاه الاقتصادية:

للقمم من رجال الأعمال رؤى اقتصادية اكتسبوا جزءاً منها من ميدان الحياة.. وللبارزين من أهل الصناعات قناعات استثمارية اكتسبوها جراء عرقهم الذي سكبوه في خطوط الإنتاج ..

والسبيعي ممن يؤمنون بأن الاستثمارات المربحة هي التي تسهم في زيادة الإنتاج الصناعي والزراعي للبلاد، وأن توظيف رأس المال في القطاعات الإنتاجية يحقق للمستثمرين ربحاً جيداً ، كما يوفر فرص عمل عظيمة للشباب، تلك الفرص التي تسد رمق الجائعين، وتوفر لطبقة الكادحين مصدراً آمناً للرزق.

ثمانون عاماً قضاها محمد السبيعي في دنيا المال والأعمال مرّت به خلالها مئات المواقف والقصص التي أطلعته على معادن الرجال وأصنافهم ومزاياهم. ولم تكن هذه المواقف لتمر عليه مرور الكرام، بل كان يستوعب ما فيها من حكم وفوائد ويطبِّقها في حياته العملية، وبالرغم من الثمار المرة لبعض هذه المواقف التي تتمثَّل في قسوتها وضخامة خسائرها المادية أحياناً إلا أن الشيخ كان يرى فيها - بقلب المؤمن - مِنَحاً في ثوب مِحَن، ويشعر أنها أضواء كاشفة تنير له طريقه وتبيِّن له عدوه من صديقه.

وكان من قناعاته الاقتصادية التي عُرف بها -رعاه الله- أن الاستثمارات التجارية يجب أن تحقق للمستثمر مصالح شخصية، ومصالح عامة للمواطنين وذلك بنسب مختلفة؛ لذا فهو يحاول جاهداً أن يكون للمصلحة العامة نصيب وافر من استثماراته؛ لأن هذا يعود بالخير على الوطن وأبنائه.